المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، ورضي الله عن صحابته الغرّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الكتاب الذي بين أيديكم، أعزائي القرّاء! هو حصيلة دراسات طويلة، وعريضة، وعميقة، في القرآن الكريم، والسيرة النبوية العطرة، والتاريخ الإسلامي، والأدب العربي، وتأمّلات في واقع الأمّة الإسلامية على مدى خمسين عاماً.

والذي حملني على كتابة هذا الكتاب وغيره من الكتب التي تبحث في أهميّة القرآن، والسيرة النبوية العطرة، هو أنّ هذه مآثرنا يجب علينا أن لا نضيّعها، كما روي عن علي بن الحسين، قال: " كُنّا نُعَلَّم مغازي النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وسراياه كما نُعَلَّم السّورة من القرآن."

وعن إسماعيل بن محمد بن سعد، قال: " كان أبي يُعلّمنا مغازي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ويَعُدُّها علينا، وسراياه، ويقول: يا بَنِيَّ! هذه مآثر آبائكم، فلا تُضيِّعوا ذِكْرها!"

وكان الزُّهْريّ يقول في علم المغازي: "علم الدنيا والآخرة."[1]

هذا الكتاب يبحث في جهاد الرسول (صلّى الله عليه وسلّم)، وصحابته الغُرّ الميامين (رضي الله عنهم أجمعين) لإقامة دولة إسلامية مؤسّسة على ثلاث قواعد أساسيّة، هي:

١. القاعدة الرُّوحيّة. ٢. القاعدة الاقتصادية. ٣. القاعدة العسكريّة.

---

[1] ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، م ٢، ص ١٨٦.

مستلهمين بذلك هُدَى الله، سبحانه وتعالى، الّذي بيَّن هذه القواعد الثلاث منذ بداية الدّعوة الإسلاميّة في مكّة، حيث يقول: (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ، وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، عَلِمَ أَلَّنْ تُحْصُوهُ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ، فَاقْرَأُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ، عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَى، وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ، وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَاقْرَأُوا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ، وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ، وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً، وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً، وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.) (المزَّمّل ٧٣/٢٠)

وعَمِلَ الرسول الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم بكل حكمة، ودراية، وصبر، وأناة، على تأسيس، وبناء هذه القواعد الثلاث، خاصّة القاعدتين الاقتصادية والعسكرية اللتين بناهما خير بناء في المدينة بعد الهجرة، كما سوف نرى في ثنايا هذا البحث، إن شاء الله تعالى.

نشر هذا الكتاب لأول مرة، بشكل أصغر ممَّا هو عليه الآن، عام ١٤١٣/١٩٩٣، وكان الإقبال عليه كبيراً، لدرجة أنّ نسخه نفدت من السوق خلال مدة قصيرة، وأثناء زيارتي للبلاد صيف عام ١٤١٥ هـ/١٩٩٥ م، وجدت أن عدداً كبيراً من الإخوة، والأخوات القرّاء، لم يروا الكتاب حتى ولم يسمعوا به، وطلبوا مني إعادة طباعته مرة أخرى كي يتسنّى لهم الإطلاع عليه، ونزولاً عند رغبة هؤلاء الإخوة، والأخوات الكرام، ها أنذا أعيد كتابته على ضوء معلومات، ومعطيات جديدة، جدّت لدي منذ أن كتبته للمرة الأولى عام ١٤١٢/١٩٩٢.نتيجة سؤال ألحَّ عليَّ ودار في راسي دورانًا عنيفًا لا يهدأ، وهو: لماذا نجح المسلمون الأوائل في إقامة دولة إسلامية غيَّرت وجه التاريخ إلى الأبد، والمسلمون اليوم على كثرة عددهم، لا يستطيعون حتى حماية أنفسهم وبلادهم من عدوان القوى الخارجية التي تسومهم الخسف والهوان ليل نهار، على الرغم من وجود القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بين أيديهم على نطاق واسع؟

هذا القرآن نفسه والذي لم يتغيَّر ولم يتبدَّل والسنة النبوية العطرة نفسها، القوَّتان الباعثتان للجيل الإسلامي الأول والأجيال التالية لإقامة أكبر دولة في التاريخ الإنساني، وإنشاء حضارة عظيمة بلغ إشعاعها الروحي والعلمي عنان السماء.

ونفدت الطبعة الثانية، وطلب مني الكثيرون من الأخوة إعادة نشره، فنشرناه للمرة الثالثة مع مراجعة، وتصحيح وإضافات كثيرة، عام ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣ م.

وها هو ينشر للمرة الرابعة والحمد لله ليخرج إلى العالم الواسع إن شاء الله تعالى.

لهذا، فالكتاب ليس إعادة للطبعة الأولى، والثانية، والثالثة، بل هو كتابة جديدة مع زيادات، وتوضيحات، وتعليقات، لا بدّ منها لتوضيح بعض الأفكار التي وردت في الكتاب، بناء على انتقادات، وتوجيهات الأخوة، والأخوات القرّاء.

أسعد نمر بصول

تمهيد:
الدَّاء و الدَّواء

الأمّة الإسلاميّة هذه الأيام في حالة يرثى لها، حالة لا تسرّ صديقاً ولا تغيظ عدوّاً، فالمسلمون في عصرنا الحاضر، على الرغم من كثرة عددهم، حيث يبلغون المليار والنصف إنساناً، إنهم وللأسف الشديد "غُثاءٌ كَغُثاءِ السَّيْلِ" كما روي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قوله: (يُوشِكُ الأُمَمُ أنْ تَداعَى عَلَيْكُمْ كَما تَدَاعَى الأكَلَةُ إلى قصْعَتِها. فقال قائل: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قال: بَلْ أنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثاءٌ كَغُثاءِ السَّيْلِ. وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ من صُدُور عَدُوِّكُمُ المَهابَة مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ في قُلُوبِكُمُ الوَهَنَ. فقال قائل: يا رَسُولَ اللهِ! وَما الوَهَنُ؟ قال: حُبُّ الدُّنْيا وَكَراهِيَةُ المَوْتِ.)[٢]

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول لثوْبان: (كَيْفَ بكَ يا ثوْبانُ إذا تَداعَتْ عَلَيْكُمُ الأُمَمُ، كَتَداعِيكُمْ على قصْعَةِ الطعامِ تُصِيبُونَ مِنْهُ؟

قال ثوْبان: بأبي أنْتَ وَأُمّي يا رَسُولَ الله! أمِنْ قِلَّةٍ بنا؟

قال: لا، أنْتُمْ كَثيرٌ، وَلَكِنْ يُلْقى في قُلُوبكُمُ الوَهَنُ.

قالوا: وَما الوَهَنُ يا رَسُولَ اللهِ ؟

قال: حُبُّكُمُ الدُّنْيا، وَكَراهِيَتُكُمُ القِتالَ.)[٣]

٢- أبو داوود، سنن؛ الطبعة الأولى، دار الحديث، ج ٤، ص ص ٤٨٣-٤٨٤ ؛أحمد بن حنبل، المسند؛ انظر الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ٩٥٨ .

٣- رواه أحمد والطبراني في الأوسط بنحوه، وإسناد أحمد جيد، انظر الهيثمي، المجمع، ج ٧، ص ٢٨٧.

وفي رواية عمرو بن عبيد عن ثوبان، قال: (تُوشِكُ الأُمَمُ أنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ، كَمَا يَتَدَاعَى الْقَوْمُ عَلَى قَصْعَتِهِمْ، يُنْزَعُ الْوَهَنُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيُجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ، وَتُحَبَّبُ إِلَيْكُمُ الدُّنْيَا.

قالُوا: مِنْ قِلَّةٍ؟

قالَ: أَكْثَرُكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ.)[٤]

صدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لأنّ هذا هو حال المسلمين اليوم، فلا حول ولا قوّة إلاّ باللهِ!

إنّ نبوءة الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم ليس فيها معنى الحتم، أو الفرض أنّ هذا سوف يحصل للمسلمين مهما يكن من أمر، ولا مفرّ منه، كما يعتقد البعض، بل في الحديث الشريف معنى التحذير من الوقوع في مثل هذه المهالك، خاصة حب الدنيا، وكراهية الموت، وهذا الذي حدث بالضبط، ومازال يحدث، حتى يومنا هذا، التنافس والقتال من أجل متاع هذه الدنيا، الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: (وَما الحَياةُ الدُّنْيا إلاّ مَتاعُ الغُرُور.) (آل عمران ١٨٥/٣)

والسؤال الّذي يبحث عن جواب، هو: لماذا حدث هذا الضعف؟ ومتى حدث؟

الجواب يكمن في الآية التالية: (وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصّابِرِينَ) (الأنفال ٤٦/٨)

تنازع المسلمون فيما بينهم، منذ مقتل الخليفة الراشد، عثمان بن عفّان رضي الله عنه في المدينة، في حرم الرسول صلّى الله عليه وسلّم، على مرأى ومسمع من الصحابة، والتابعين، ولم يهبّ لنصرته إلاّ قلّة قليلة منهم لم تُغْنِ عنه شيئاً، واستشهد الخليفة الراشد، في بيته على أيدي حفنة من المجرمين، وهو يتلو كتاب الله. هؤلاء المارقون على الدّين، أعطوا لأنفسهم الحقّ، دون توكيل من أحد لتخليص الأمّة من خليفة، انتخب بالشورى بين المسلمين، وبزعمهم أنّ هذا الخليفة المنتخب لم يعدل، لذلك قرّروا قتله لإراحة الأمّة منه دون استشارة الأمّة أو قادتها، وبهذا فتحوا باب الصراع على السلطة بين المسلمين على مصراعيه.

---

[٤]- ابن أبي شيبة، المصنف،ج ٧، ص ٤٦٣، حديث ٣٧٢٤٧.

ومنذ ذلك الوقت والمسلمون في تناحر، وتدابر، وصراع عسكري مرير على السلطة، وأصبح بأس الأمّة الإسلامية بينها شديداً

ورُوي عن أبي موسى الأشعري، قال: "لو كان قتل عثمان هُدىً لاحْتلبوا به لَبَناً، لكنّه كان ضلالاً، فاحتلبوا به دماً."[٥]

وأحسن الصحابيّ الجليل، عبد الله بن عمر بن الخطاب، في وصف السبب الّذي من أجله قُتِلَ الخليفة عثمان رضي الله عنه، قال: "جاءني رجل من الأنصار في خلافة عثمان، فكلّمني، فإذا هو يأمرني في كلامه بأن أعيب على عثمان، فتكلّم كلاماً طويلاً، وهو امرؤ في لسانه ثِقل، فلم يكد يقضي كلامه في سَريح، قال: فلمّا قضى كلامه، قلت له: إنّا كنّا نقول ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم حَيٌّ: أفضل أمّة رسول الله بعده، أبو بكر، ثمّ عمر، ثمّ عثمان. وإنّا والله ما نعلم عثمان قتل نفساً بغير حقّ، ولا جاء من الكبائر شيئاً، ولكن هو هذا المال، فإن أعطاكموه، رضيتم، وإن أعطاه أولي قرابته، سخطتم. إنّما تريدون أن تكونوا كفارس والروم، لا يتركون لهم أميراً إلاّ قتلوه."[٦]

ولقد فطن بعض المسلمين من العصر الأوّل، عصر الصحابة والتابعين، لهذا الأمر كما روي عن أبي المنهال، قال: "لمّا كان مروان بالشام، ووثب [عبد الله] بن الزبير بمكة، ووثب القرّاء بالبصرة. فانطلقتُ مع أبي إلى أبي برزة الأسلمي حتى دخلنا عليه في داره، وهو جالس في ظل عليَّة له من قصب، فجلسنا إليه. فأنشأ أبي يستطعمه الحديث، فقال: يا أبا برزة! ألا ترى ما وقع فيه الناس؟ فأول شيء سمعته تكلم به: "إني احتسبت عند الله أنّي أصبحت ساخطاً على أحياء قريش، إنّكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذّلّة والقلّة والضلالة، وإنّ الله أنقذكم بالإسلام وبمحمد صلّى الله عليه وسلّم حتى بلغ بكم ما ترون. وهذه الدنيا التي أفسدت بينكم. إنّ ذاك الذي بالشام، والله إن يقاتل إلاّ على الدنيا، وإنّ

---

[٥]ــ البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق إحسان عباس، القسم الرابع، الجزء الأول، ص ٥٧٣، خبر ١٤٦٤؛ الصنعاني، المصنَّف، م ١١، ص ٤٤٦، حديث ٢٠٩٦٥.

[٦]ــ ابن حنبل، فضائل الصحابة، ج ١، ص ٩٤.

هؤلاء الذين بين أظْهُركم، والله إن يقاتلون إلاّ على الدنيا، وإنّ ذلك الذي بمكّة، والله إن يقاتل إلاّ على الدنيا."[٧]

وهذا هو رأي الحسن البصري الذي أبداه لرجل من الخوارج أتاه يسأله، فقال له: ما تقول في الخوارج؟

قال: هم أصحاب دنيا.

قال: ومن أين قُلْتَ، وأحدهم يمشي في الرُّمْح حتّى ينكسر فيه، ويخرج من أهله وولده؟

قال الحسن: حَدِّثني عن السُّلطان، أيَمْنَعُكَ من إقامة الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، والحجِّ والعُمْرة؟

قال: لا.

قال: فأراه إنَّما منعك الدّنيا، فقاتلته عليها.

قال إسحاق: فحدثتُ بهذا الحديث، الغاضِريَّ، وكان ظريفاً بالمدينة، فقال: صدق الحسن، ولو أنَّ أحدهم صام حتّى يتعقَّد، وسجد حتى يُحَزَّ جبينُه، واتَّخذ عسقلانَ مَراغة[٨] ما مَنَعَهُ السّلطانُ، فإذا جاء يطلب ديناراً أو درهماً، لُقِيَ بالسُّيوف الحِداد، والأدْرُع الشِّداد.[٩]

وعن عبد الله بن عبّاس رضي اللّه عنهما قال: قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (لا تَرْتَدُّوا بَعْدِي كُفّاراً يَضْرِبْ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ.)[١٠]

كذلك حذّر الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم من الفتن، والدخول فيها، والانضمام إلى الفرق الضالّة المُضِلّة التي تدّعي الإسلام، ونصرة الإسلام والمسلمين، والإسلام منها براء.

٧ــ البخاري ، صحيح، كتاب الفتن.

٨ــ أي رابط فيها للجهاد، كما كان المسلمون يرابطون في مراغة لحرب الكفار.

٩ــ أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ج ١، ص ١٥٦.

١٠ــ البخاري، صحيح، كتاب الفتن.

روي عن أبي إدريس الخَوْلانيّ، أنّه سمع حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: كان الناس يسألون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الخير، وكنت أسأله عن الشرّ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله! إنّا كنّا في جاهليّة وشرٍّ، فجاءنا اللّه بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرّ؟

فقال: نعم.

قلت: وهل بعد ذلك الشرّ من خير؟

قال: نعم. وفيه دَخَنٌ.

قلت: وما دَخَنُه؟

قال: قوْمٌ يَهْدُونَ بغَيْرِ هَدْيي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ.

قلت: فهل بعد ذلك الخير من شرّ؟

قال: نعم. دُعاةٌ عَلى أبْوابِ جَهَنَّمَ مَنْ أجابَهُمْ إلَيْها قذفُوهُ فيها.

قلت: يا رسول اللهِ! صِفْهُم لنا!

قال: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنا وَيَتَكَلَّمُونَ بألْسِنَتِنا.

قلت: فما تأمرني إنْ أدركني ذلك؟

قال: تَلْزَمُ جَماعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإمامَهُمْ.

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟

قال: فاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّها، وَلَوْ أنْ تَعَضَّ بَأصْلِ شَجَرَةٍ حَتّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأنْتَ عَلَى ذَلِكَ.[١١]

والذي حذّرنا منه رسول الله قبل ما يقرب من أربعة عشر قرناً قد وقع، وتفاقم الأمر حتى وصل المسلمون إلى ما وصلوا إليه من الضعف، والوهن، والفُرقة، وقلّة الحيلة، لدرجة أنّ الدم المسلم أصبح يُراق في مشارق الأرض ومغاربها لأتفه الأسباب دون أيّ حساب. إنَّ سطلاً من زيت البترول أعلى قيمة وثمنًا من سطل دم عربي أو مسلم، وما يحدث في ليبيا واليمن هذه الأيام[١٢] لخير شاهد على ما نقول.

---

[١١] -البخاري، صحيح، كتاب الفتن؛ الحديث بزيادة عند ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ٨، ص٧١-٧٢

[١٢] - عام ٢٠١١م.

كذلك حذّر الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم المسلمين من وقوع وظهور بعض الأمور التي نهى عنها الشرع الحنيف بينهم، وبيَّنَ صلّى الله عليه وسلّم العقوبات التي يعاقب الله الناس بها نتيجة لارتكابهم ما نهى عنه.

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (خَمْسٌ إذا ابْتُليتُم بهنَّ، وَنَزَلَ فيكُمْ أعوذُ باللّهِ أنْ تُدْركوهُنَّ:

١ـ لَم تَظْهَر الفاحِشَةُ في قَوْمٍ قطُّ حتّى يَعْمَلوا بها، إلاّ ظَهَرَ فِيهِمُ الطّاعُونُ وَالأوْجاعُ الّتي لم تَكُنْ مَضَتْ في أسْلافِهِمْ.

٢ـ وَلَمْ يُنْقِصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ، إلاّ أُخِذُوا بالسِّنينَ وَشِدَّةِ الْمُؤُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطانِ عَلَيْهِم.

٣ـ وَلَمْ يَمْنَعوا الزّكاةَ، إلاّ مُنِعُوا القَطْرَ مِنَ السَّماءِ، وَلَوْلا البَهائِمُ لَمْ يُمْطَروا.

٤ـ وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إلاّ سَلَّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَأَخَذُوا بَعْضَ ما كانَ في أيْدِيهِمْ.

٥ـ وَما لَمْ يَحْكُمْ أئِمَّتُهُمْ بِكِتابِ اللهِ، إلاّ ألْقى اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ.)[١٣]

فلينظر المسلمون حولهم! أليس جميع هذه الخَمس التي حذَّر منها الرسول الكريم، أو على الأقلّ، أكثرها، وقعت وتُمارَس في بلاد المسلمين؟

فما هو المخرج من هذه المحنة الدهماء، والداهية الدهياء، التي أصابت المسلمين في الشرق والغرب؟

المخرج الوحيد هو العودة إلى الإسلام الحق، إسلام القرآن الكريم، كما طبّقه، ومارسه الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، والصحابة، والتابعون، ومن والاهم، وعمل بعملهم، وسار على هديهم، لأنّ الإسلام الحقّ هو الذي نهض بهذه الأمّة ووحّدها بعد الفرقة، وجعلها خير أمّة أخرجت للنّاس، كما قال الله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ.) (آل عمران ٣/١١٠)

[١٣]– الحاكم، المستدرك، م ٤، ص ٥٤٠؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، م ٨، ص ٣٣٣–٣٣٤.

وبيَّن الرسولُ الكريمُ صلّى الله عليه وسلّم الطريقَ والصراط المستقيم الّذي يجب على المسلم سلوكه لكي يدخل الجنّة، أي أنّ سلوكه الحسن والإنساني على هذه الأرض يُدخله الجنّة، كما وعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، بقوله: (تَقَبَّلُوا لِي بِسِتٍّ، أَتَقَبَّلْ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ!

قالوا: وَما هُنَّ؟

قال: إذا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ، فَلا يَكْذِبْ! وَإذا وَعَدَ، فَلا يُخْلِفْ! وَإذا ٱئْتُمِنَ، فَلا يَخُنْ! وَغُضُّوا أَبْصارَكُمْ! وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ! وَٱحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ!)[14]

ولقد قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: "إنَّ اللهَ تَوَكَّلَ بهذا الأَمْرِ[15]، فَهْوَ ناصِرُ مَنْ لَزِمَهُ، وَخاذِلُ مَنْ تَرَكَهُ."[16]

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إنَّ العَرَبَ كانَتْ أُسْداً في جَزِيرَتِها يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فَلَمَّا جَمَعَهُمُ اللهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَقُمْ لَهُمْ شَيْءٌ."[17]

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه: "إنَّكُمْ كُنْتُمْ أَذَلَّ النّاس، وَأَحْقَرَ النّاس، وَأَقَلَّ النّاس، فَأَعَزَّكُمُ اللهُ بالإسْلامِ، فَمَهْما تَطْلُبُوا العِزَّ بِغَيْرِهِ يُذِلُّكُمُ اللهُ."[18]

وقال عمر رضي الله عنه أيضاً : "يَهْلِكُ العَرَبُ إذا انْقَطَعَ عَنْها تَقْوَى الإسْلامِ وَحَمِيَّةُ الجاهِلِيَّةِ."[19]

وما تخوَّف منه عمر رضي الله عنه، حدث بالفعل، كما روى الأعمش، قال: قال لي أبو وائل: "يا سليمان! ما في أمرائنا هؤلاء واحدة من اثنتين: ما فيهم تقوى أهل الإسلام، ولا فيهم عقول أهل الجاهليّة."[20]

---

١٤ – ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٣، ص ٣٠.

١٥ – هذا الأمر، يعني الإسلام.

١٦ – الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص ٣١٧ .

١٧ – أبو حيّان التوحيدي، البصائر والذخائر، ج ٣، ص ١٠٣.

١٨ – ابن كثير، البداية والنهاية، م ٤، ج ٧، ص ٦١.

١٩ – أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ج ١، ص ٤٧٢.

ضاعت التقوى من الناس ومن أمرائهم، فضاعت أمورهم، وآنسدّت المسالك في وجوههم، وتعسَّرت حياتهم، وتعقّدت، لأنّهم ابتعدوا عن أمر الله سبحانه وتعالى للنّاس بالتزام التقوى والعمل بها، كما قال سبحانه: (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَّهُ مَخْرَجاً.) (الطلاق ٢/٦٥)

وفي آية تالية من نفس السورة، يقول الله سبحانه وتعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَّهُ مِنْ أَمْرِهْ يُسْراً.) (الطلاق ٤/٦٥)

والمحاورة القصيرة التالية بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه والهرمزان الفارسي تُبيّن لنا مدى أهميّة الإسلام والإتحاد في حياة العرب والمسلمين.
"قال عمر للهرمزان: يا هرمزان! كيف رأيت وَبالَ الغدر وعاقبة أمر الله؟
فقال الهرمزان: يا عمر! إنّا كنّا وإيّاكم في الجاهليّة كان الله قد خلّى بيننا وبينكم، فغلبناكم، إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلمّا كان معكم غلبتمونا.
فقال عمر: إنّما غلبتمونا في الجاهليّة باجتماعكم وتفرّقنا."[٢١]

أليس هذا هو حال الغالبية العظمى من المسلمين اليوم؟ لا هم متّحدون، ولا الله سبحانه وتعالى معهم، لأنّهم نسوا الله، فأنساهم أنفسهم، كما حذّرنا سبحانه وتعالى من ذلك بقوله: (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ.) (الحشر ١٩/٥٩)

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: "إنَّ آخِرَ هَذا الأَمْر لا يَصْلُحُ إلاَّ بما صَلُحَ أوَّلُهُ."[٢٢]

وقال الإمام مالك رحمه الله: "لا يُصْلِحُ آخِرَ هذِهِ الأُمَّةِ إلاّ ما أصْلَحَ أوَّلَها."[٢٣]

٢٠- ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٠، ص ٣٣٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ١٦٤.
٢١- ابن كثير، البداية والنهاية، م ٤، ج ٧، ص ٨٩.
٢٢- الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٤٧.
٢٣- القاضي عياض، الشّفاء، م ٢، ص ٦٧٦.

وقال ابن خلدون في مقدّمته مبيّناً تأثير الدين على حياة العرب: "إنَّ العَرَبَ لا يَحْصُلُ لَهُمُ المُلْكُ إلاّ بصِبْغَةٍ دِينِيَّةٍ مِنْ نُبُوَّةٍ، أوْ ولايَةٍ، أوْ أثَرٍ عَظِيمٍ مِنَ الدّين عَلى الجُمْلَةِ."[٢٤]

محاورة أخرى بين المغيرة بن شُعْبة، قائد من قوّاد المسلمين من الصحابة وبين رستم القائد الأعلى لجيوش الفرس في حربهم مع المسلمين قبيل معركة القادسية، تُبيّن مدى تأثير الدين الإسلامي في نفوس المسلمين الأوائل حيث جعلهم ينتصرون على أعدائهم الفرس الذين كانوا أكثر عدّة وعدداً منهم.

"عندما التقى المسلمون والفرس في القادسية، بعث رستم قائد جيوش الفرس إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قائد جيش المسلمين: أن ابعث إليّ رجلاً جَلْداً أكلّمه.

فبعث إليه المغيرةَ بنَ شُعْبة، فلمّا دخل على رستم، قال له رستم: إنّكم معشر العرب كنتم أهل شقاء وجَهْد، وكنتم تأتوننا من بين تاجر، وأجير، ووافد، فأكلتم من طعامنا، وشربتم من شرابنا، واستظللتم بظلالنا، فذهبتم، فدعوتم أصحابكم، وجئتم تؤذوننا. وإنّما مَثَلكم مَثَل رجل له حائط[٢٥] من عنب، فرأى فيه أثر ثعلب، فقال: وما ثعلب واحد! فانطلق ذلك الثعلب حتى دعا الثعالب كلّها إلى ذلك الحائط، فلمّا اجتمعن فيه، جاء صاحب الحائط فرآهن، فسدَّ الجحر الذي دخلن منه، ثمّ قتلهنّ جميعاً. وأنا أعلم إنّما حملكم على هذا، معشر العرب! الجهد الذي أصابكم، فارجعوا عنّا عامكم هذا! فإنّكم شغلتمونا عن عمارة بلادنا، ونحن نُوقِر لكم ركائبكم قمحاً، وتمراً، ونأمر لكم بكُسْوَة، فارجعوا عنّا!

فقال المغيرة بن شعبة: لا يُذكر منّا جَهْد إلاّ وقد كنّا في مثله وأشدّ، أفضلنا في أنفسنا عيشاً الذي يقتل ابن عمّه، ويأخذ ماله، فيأكله. نأكل المَيْتَة، والدّم، والعظام، فلم نزل على ذلك، حتى بعث الله فينا نبيّاً، وأنزل عليه الكتاب، فدعانا إلى الله وإلى ما بعثه به، فصدّقه به منّا مصدِّق، وكذّبه به منّا مكذِّب، فقاتل بمن صدّقه

٢٤ــ مقدّمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ج ٢، ص ٦٢٦.

٢٥ــ حائط، يعني بستان حوله سور.

من كذّبه، حتى دخلنا في دينه، من بين مُوقِن، ومقهور، حتى استبان لنا أنّه صادق، وأنّه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأمرنا أن نقاتل مَن خالفنا، وأخبرنا أنّ مَن قُتِلَ منّا على ذلك فله الجنّة، ومَن عاش مَلَكَ، وظهَرَ على مَن خالفه، ونحن ندعوك إلى أن تؤمن بالله وبرسوله، وتدخل معنا في ديننا، فإن فعلت كانت لك بلادك، ولا يدخل عليك فيها إلاّ مَن أحببت، وعليك الزكاة والخُمْس، وإن أبَيْت ذلك، قاتلناك حتى يحكم الله بيننا وبينك."[٢٦]

هؤلاء العرب الذين كانوا متفرّقين، يقتل بعضهم بعضاً، ويأكلون الميتة، والدم، والعظام، ولا يأبه لهم أحد ممّن كان حولهم من الأمم، كالفرس، والروم، والحبشة، لرقة حالهم، وجدب بلادهم الخالية من الزراعة، والصناعة، لدرجة أنها لم تجذب أحداً من القوى المتصارعة على الإستعمار، والتوسّع، في ذلك الوقت، وكل تلك القوى كانت تحاول، وتعمل على توسيع سلطانها خارج حدودها بشتى الوسائل الممكنة، كما روى المؤرخ محمد بن إسحاق[٢٧] في كتابه "السيرة النبوية": "لمّا طال بلاء الحبشة على أهل اليمن، خرج سيف بن ذي يزن الحميَري حتى قدم على قيصر ملك الروم، فشكا إليه ما هم فيه، وسأله أن يخرج الحبشة عنهم ويليهم هو، ويبعث لهم من شاء من الروم، فيكون له مُلْك اليمن، فلم يُشْكِهِ، فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه أمر الحبشة. فقال له النعمان: إنّ لي على كسرى وفادة في كل عام، فأقم حتى يكون ذلك، ففعل، فأدخله على كسرى. فقال له: أيُّها الملك! غلبتنا على بلادنا الأغربة. فقال كسرى: أيّ الأغربة؟ ألحبشة أم السند؟ فقال: الحبشة، فجئتك تنصرني ويكون مُلْك بلادي لك. قال كسرى: بَعُدَت بلادك مع قلّة خيرها، فلم أكن لأورِّط جيشاً من فارس بأرض العرب، لا حاجة لي بذلك."[٢٨]

---

[٢٦]ــ ابن حبّان، السيرة، ص ص ٤٦٧-٤٦٨ ؛ الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ص ٤٩٦-٤٩٧ باختلاف.

[٢٧]ــ توفي سنة ١٥٢ هـ.

[٢٨]ــ ابن هشام، سيرة رسول الله ؛ ومحمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ، ج ١، ص ٤١.

هذا كان حال العرب قبل الإسلام، أمّا بعد الإسلام فقد تغيّر حالهم وأصبحوا أكبر قوّة ضاربة يخافهم ملوك الفرس، والروم، والصين، كما روى ابن كثير: "لمّا بعث يزدجرد ملك الفرس إلى ملك الصين، يستغيث به، ويستنجده، فجعل ملك الصين، يسأل الرسول عن صفة هؤلاء القوم الذين فتحوا البلاد، وقهروا رقاب العباد. فجعل الرسول يخبره عن صفتهم، وكيف يركبون الخيل والإبل، وماذا يصنعون، وكيف يُصَلّون. فكتب معه إلى يزدجرد: إنّه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوّله بمرو، وآخره بالصين، الجهالة بما يحقّ عليّ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم، لو يحاولون الجبال لهدّوها، ولو جئت لنصرك، أزالوني، ما داموا على ما وصف لي رسولك، فسالمهم، وارض منهم بالمسالمة."[٢٩]

لننظر في عبارة ملك الصين: "ولو جئت لنصرك أزالوني ماداموا على ما وصف لي رسولك."

وهل بقي المسلمون على ما وصفهم رسول كسرى من الإيمان الحقّ، والفروسية، وحب الموت، والعبادة الصادقة المخلصة؟ الجواب على هذا السؤال معروف للقاصي والداني.

وفي هذا الشأن قال الله سبحانه وتعالى، وهو أصدق القائلين: (إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بقوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بأَنْفُسِهِمْ.) (الرعد ١١/١٣)

لقد غيّر المسلمون ما بأنفسهم، وآستكانوا للذلّ، فغيّر الله ما بهم من العزّة إلى الذلّ والهوان. إذن والحالة هذه فإنّ باب العزّ، والنصر، مفتوح أمام الأمّة الإسلاميّة، إذا أرادت الدخول فيه، كما فتحه السلف الصالح من الصحابة والتابعين على مصراعيه، حتى دوّخوا ملوك الأرض كلهم في زمانهم، وحرّروا شعوبهم من ظلمهم وجبروتهم، وأقاموا لأمم الأرض كلها مجتمعاً مؤسّساً على الإيمان بالله وحده، والإسلام الّذي يكفل الحريّة، والعدالة الاجتماعية للجميع، لا فرق بين غنيّ وفقير، وشريف ووضيع.

---

[٢٩]ــ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٤، ج ٧، ص ١٣٢.

ممّا تقدّم نعلم أنّه على الأمّة الإسلامية لكي تنهض من كبوتها وتفيق من غفوتها التي طالت أن ترجع إلى دينها، وتعمل به، وتطبّقه تطبيقاً عمليًّا، في جميع أمور حياتها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، كما فعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وصحابته، والتابعون لهم بإحسان.